التفاعل الفكري للشيخ أبي بكر محمود جومي تجاه الحركات الإسلايمة المعاصرة

الدكتور أحمد أبوبكر جومي

مسجد السلطان محمد بللو كدونا

التفاعل الفكري للشيخ أبي بكر محمود جومي تجاه الحركات الإسلامية المعاصرة

مقدمة

«إِنَّ الْحَمْدَ للَّه نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيه وَنَسْتَنْصِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى حَتَّى يَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»

«أمّا بَعْدُ:

فبعد مُضيّ ما يقاربُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا من بزوغِ فجرِ الإسلامِ على العالمِ، وَاجَهَ الْمُسْلِمُونَ تَحَدِّيَاتٍ عَدِيدَةً وَمُتَنَوِّعَةَ الْأَشْكَالِ وَالْأَنْوَاعِ، مما استدعى أحيانًا تغييراً في المنهجِ أو الأسلوبِ في مواجهتها. وفي أحيانٍ أخرى، تأثر المسلمون بالتياراتِ غيرِ الإسلامية تأثرًا جذريًا، الأمر الذي أدى إلى المساس بثوابت الدين في العقيدة والعبادة ونظام الدولة.

وَمِنْ هُنَا تَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ دِرَاسَةِ آرَاءِ وَاتِّجَاهَاتِ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ فِي تَصَدِّيهِمْ لِهَذِهِ الْهَجَمَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ. يقول الشيخ عثمان بن فودي -رحمه الله- في كتابه حصن الإفهام من جيوش الأوهام)المسألة 77»:(وَمِنْ تِلْكَ الْأَوْهَامِ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعْمِيهِ الْحَسَدُ وَيَقُولُ: الصَّوَابُ تَرْكُ الِاشْتِغَالِ بِالتَّوَالِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ الْيَوْمَ، لِأَنَّ تَوَالِيفَ الْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا لَمْ تَتْرُكْ لَنَا شَيْئًا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَهُمْ أَوْفَرُ عِلْمًا مِنَ الَّذِينَ يُؤَلِّفُونَ الْيَوْمَ. وَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ وَوَهْمٌ بِالْإِجْمَاعِ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَالِمٍ يُرَاعِي فِي تَأْلِيفِهِ هِمَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَأَغْرَاضَهُمْ، لِأَنَّهُ الْعَالِمُ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا كَانَ تَأْلِيفُ كُلِّ عَالِمٍ فِي زَمَانِهِ أَنْفَعَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ تَأْلِيفِ غَيْرِهِ.«

ويمرّ العالم الإسلامي اليوم بمفترق طرق بين الحداثة والتقليد، وقد سادت فيه ثلاث اتجاهات رئيسة: الاتجاه السلفي، والاتجاه الإخواني، والاتجاه الشيعي. أما الاتجاه الشيعي فيتركز وجوده في إيران والعراق ولبنان.

الحركة السلفية الحديثة

تلتزم هذه الحركة بفهم الإسلام والعمل به وفق منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهم القرون الثلاثة المفضلة. ولم تكن السلفية في أصلها حزبًا سياسيًا ولا جماعة تنظيمية، بل هي منهج عقدي وعلمي.

وقد برزت بقوة في القرن الثاني عشر الهجري مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1206 هـ)، ثم انتشرت لاحقًا مع قيام دولة المملكة العربية السعودية في القرن العشرين الميلادي. وكان هدفها الرئيس تصحيح العقيدة، ومحاربة الشرك والبدع، وإعادة الناس إلى النصوص الشرعية بفهم السلف الصالح.

وهنا يطرح السؤال: هل هناك فرق بين المنهج السلفي الأصيل والحركات المعاصرة التي تنتسب إليه؟

والجواب: نعم.

فعن عمران بن حصين -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...» الحديث. متفق عليه.

ومن أبرز أئمة السلف الأصيل أئمة المرجعية التاريخية الذين اتفق الناس على إمامتهم، وهم الأئمة الأربعة، أئمة المذاهب الفقهية السنية:

- أبو حنيفة (ت 150هـ): إمام أهل الرأي والفقه.
- مالك بن أنس (ت 179هـ): إمام دار الهجرة.
- الشافعي (ت 204هـ): واضع علم أصول الفقه.
- أحمد بن حنبل (ت 241هـ): إمام أهل السنة والحديث.

وقد اجتمعوا على السنة، واختلفوا في الفروع باجتهاد معتبر.

أما السلفية المستحدثة، فتعتمد مبدئيًا على كتب الحديث، وعلى رأسها الصحيحان :صحيح البخاري (ت 256هـ) وصحيح مسلم (ت 261هـ)، وتقدمهما على آراء أئمة الفقه عند التعارض. ثم اعتمدوا اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية (ت

728هـ) وتلاميذه، كابن القيم (ت 751هـ) وابن كثير (ت 774هـ)، مع كونهم متمذهبين.

ويضاف إلى مرجعيات السلفية الحديثة عدد من علماء العصر، من أشهرهم:

- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت 27 محرم 1420هـ)
- الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ت 22 جمادى الآخرة 1420هـ)
- الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت 15 شوال 1421هـ)

مع التنبيه على أن السلفية لا تُختزل في شخص ولا في بلد معين. ومن أبرز سمات الحركة السلفية الحديثة – إضافة إلى تصحيح العقيدة – موقفها من السياسة، حيث ترى تحريم الخروج والإنكار العلني على ولاة الأمور، وتقديم الإصلاح العقدي والتربوي، وهو منشأ الخلاف الشديد بينها وبين حركة الإخوان، التي تتهم السلفية بالجمود والتعصب والتشدد.

حركة جماعة الإخوان المسلمين

تأسست جماعة الإخوان المسلمين سنة 1928م في مدينة الإسماعيلية بمصر على يد الإمام حسن البنّا (1906–1949م). وقد جاءت نشأتها في سياق سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م، والاستعمار الغربي، وضعف الهوية الإسلامية في الحياة العامة.

وكان شعار الجماعة منذ البداية:

«الإسلام دين ودولة، مصحف وسيف»

وسعت الجماعة إلى إصلاح الفرد ثم الأسرة فالمجتمع وصولًا إلى الدولة. ومن هنا نشأ الخلاف بينها وبين الحركة السلفية؛ إذ لم يركز الإخوان على الإصلاح العقدي، كما أن السلفيين لم يروا ضرورة الخوض في السياسة في ظل الأنظمة الاستبدادية، سواء كانت ملكية أو عسكرية. وفي ظل غياب الوعي العام وانتشار الجهل بأساسيات الدين بين عامة الناس، بدا أن أي محاولة لتغيير الحكم ستؤدي إلى الفتن والفساد الواسع.

ويَعدّ سيد قطب (1906–1966م) أبرز مفكري الجماعة، ومن أشهر كتبه في ظلال القرآن ومعالم في الطريق، وقد طرح فيهما مفاهيم مثل الحاكمية والجاهلية المعاصرة، وأعدم سنة 1966م.

وخلاصة الأمر أن الإخوان حركة إصلاحية سياسية ذات طابع تنظيمي، بينما السلفية منهج عقدي علمي إصلاحي. والاختلاف بينهما منهجي لا في أصل الإسلام، لكنه ذو آثار كبيرة في الواقع والدعوة.

وقد تباينت الآراء حول جماعة الإخوان المسلمين حديثًا؛ فبينما يراها بعضهم جماعة إرهابية ومصدرًا للتطرف، يرى منصفون – ومنهم الشيخ الألباني – أنها كيان إسلامي له أخطاء، لكنه أسهم في توجيه الشباب نحو الدين، مع وجود انتقادات لفكرها السياسي وتاريخها التنظيمي.

دعوة الشيخ أبي بكر جومي

من تتبع دروس الشيخ أبي بكر محمود جومي ومؤلفاته يجد بوضوح تصريحه بأن منهجه سلفي في العقيدة، مالكي في الفقه، وإخواني في السياسة .فقد أخذ من كل اتجاه ما رآه صحيحًا، وألّف بين هذه الاتجاهات بما يخدم مصلحة المسلمين، وقد يكون للبيئة السياسية التي عاش فيها دور كبير في تبني هذا الموقف.

فقد وُلد الشيخ وعاش في العقد الأخير من الاستعمار الإنجليزي، وشاهد كيف سعى الاستعمار إلى تغيير معالم الدين وتعطيل الشريعة الإسلامية، مع الإبقاء على العبادات الفردية فقط. وكان يدرك أن خيرية هذه الأمة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[آل عمران: 110].

وقد انتشر المذهب المالكي في غرب أفريقيا، واعتمدته الحكومات النيجيرية في شؤون الأحوال الشخصية، ولم يحد الشيخ عنه. قال في مقدمة تفسيره رد الأذهان إلى معاني القرآن:

« وسأبين كل ذلك إن شاء الله في محله، مقتصرًا على مشهور مذهب مالك، وربما أشير إلى مذهب غيره»...

كما بيّن اتجاهه العقدي في خاتمة التفسير بقوله:

«".. ففي آيات الصفات، والأسماء اتبعتُّ العقيدة السلفية، وانتفعت في ذلك بكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وإرشادات الشيخ عبد العزيز عبد العزيز بن باز، وجزى الله الجميع عني وعن الإسلام خيراً، وجعل الله مثوانا دار السلام مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ.." »

وكما مر، عرفنا أن سيد القطب من أبرز المفكرين لجماعة الإخوان وقد درس الشيخ كتبه واقتبس من تفسيره كما صرح بذلك نفسه في خاتمة تفسيره فقال: (واتبعتُّ السيد قطب في كتابه في ظلال القرآن في الإشارة إلى المواضيع الرئيسية لدروس السور، واختصرتُ كلامه بقدر الحاجة ومقتضى المقام، وكثيراً ما انتفعتُ بنفس ألفاظه في التفسير بدون التنبيه على ذلك ....)

وهذا دليل على أن الشيخ لا يعادي هذا الاتجاه الإخواني، بل قد شهر منه مقولته "السياسية أهم من الصلاة والحج" وذلك لما رأى من تأثير السياسة الشرعية في حفظ الكليات الخمسة والصلاة مندرجة تحتها.

وتؤكد النصوص الشرعية هذا المعنى، كما في فضل الجهاد والإمامة، ومما يؤيد هذا الرأي من النصوص ما ورد في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله عز وجل؟ قَالَ: لَا تَسْتَطِيعُونَهُ. قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا تَسْتَطِيعُونَهُ. وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ الله، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى.» متفق عليه.

فما دام أن الجهاد أفضل من العبادات وهو لا يتم إلا بالإمام والقيادة، فمن ثم تظهر أهمية السياسة لإن هي أداة الملك. ففي الصحيحين: «عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قَالَ (إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ. يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ. وَيُتَّقَى بِهِ. فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عز وجل وَعَدَلَ، كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ. وإن يأمر بغيره، كان عليه منه).» متفق عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: 40-41]. فالتمكين في الأرض أولا هو يمكن من إقامة الصلاة والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر. والتمكين في الأرض وسيلة لإقامة الصلاة وسائر شعائر الدين.

خاتمة

خَلَصَ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا بَكْرٍ مَحْمُودَ جُومِي قَدَّمَ نَمُوذَجًا علْمِيًّا مُتَمَيِّزًا فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، اتَّسَمَ بِالْوَعْيِ بِالْوَاقِعِ، وَالالْتِزَامِ بِالْأُصُولِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَدَارِسِ الْفِكْرِيَّةِ دُونَ ذَوَبَانٍ فِي أَيٍّ مِنْهَا. فَقَدْ حَافَظَ عَلَى الْمَنْهَجِ السَّلَفِي فِي الْعَقِيدَةِ بِوَصْفِه الضَّامِنَ لصحَّة الاعْتِقَادِ وَسَلَامَةِ الْمَنْهَجِ، وَالْتَزَمَ بِالْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْفِقْهِ بِاعْتِبَارِه الْإِطَارَ الْعَمَلِيَّ الْمُسْتَقِرَّ لِلْمُجْتَمَعِ الَّذِي عَاشَ فيه، مَعَ وَعْيِه بِأَهَمِّيَّةِ الْبُعْدِ السِّيَاسِيِّ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَمَقَاصِده الْكُبْرَى، وَهُوَ مَا قَرَّبَهُ مِنَ الطَّرْحِ الْإِخْوَانِيِّ فِي هَذَا الْجَانِبِ دُونَ الْتِزَامٍ تَنْظِيمِيٍّ أَوْ حِزْبِيٍّ.

وَيَظْهَرُ مِنْ خِلَالِ مُؤَلَّفَاتِه وَدُرُوسِه أَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ أَسِيرًا لِلتَّصْنِيفَاتِ الْحَرَكِيَّةِ أَوِ الاصْطِفَافَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الضَّيِّقَةِ، بَلْ كَانَ يَنْطَلِقُ مِنْ فِقْهِ الْمُوَازَنَاتِ وَالْمَقَاصِدِ، وَيُقَدِّمُ مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ وَوَحْدَتَهَا عَلَى الْخِلَافَاتِ الْمَنْهَجِيَّةِ الثَّانَوِيَّةِ. كَمَا أَدْرَكَ أَنَّ مُعَالَجَةَ أَزْمَاتِ الْأُمَّةِ لَا تَتِمُّ بِالاكْتِفَاءِ بِالْإِصْلَاحِ الْفَرْدِيِّ وَلَا بِالانْدِفَاعِ السِّيَاسِيِّ غَيْرِ الْمُنْضَبِطِ، وَإِنَّمَا بِتَكَامُلِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الرَّاسِخِ، وَالْعَمَلِ الْعَامِّ الْوَاعِي.

وَتُبْرِزُ تَجْرِبَةُ الشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ جُومِي أَهَمِّيَّةَ الْعَالِمِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَعِيشُ هَمَّ زَمَانِه، وَيَسْتَفِيدُ مِنْ تُرَاثِ السَّلَفِ، وَيَسْتَوْعِبُ مُعْطَيَاتِ الْوَاقِعِ، دُونَ أَنْ يُفَرِّطَ فِي الثَّوَابِتِ أَوْ يَنْجَرِفَ وَرَاءَ الشِّعَارَاتِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ مَنْهَجِه نَمُوذَجًا قَابِلًا لِلدِّرَاسَةِ وَالاقْتِدَاءِ فِي وَاقِعِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُعَاصِرِ، حَيْثُ تَشْتَدُّ الْحَاجَةُ إِلَى خِطَابٍ عِلْمِيٍّ جَامِعٍ يُوَازِنُ بَيْنَ الْأَصَالَةِ وَالتَّجْدِيدِ، وَيُؤَسِّسُ لِوَحْدَةِ الصَّفِّ الْإِسْلَامِيِّ فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الرَّاهِنَةِ.

كاتبه: الشيخ الدكتور أحمد بن أبي بكر بن محمود جومي

الثلاثاء، 02 شعبان، 1447هـ

كادونا